

"الوطن في أدب المهجـر"

الدكتور سهيل بشرؤـي

(أوردت جريدة "الأهرام الدولي" القاهرة في عددها الصادر بتاريخ ٢٠٠١/٤/١٠ الخبر التالي عن ندوة "مركز الحوار العربي": "الوطن في أدب المهجـر" التي جرت في ٧ آذار/مارس ٢٠٠١، وذلك نقلـاً عن مراسلها في واشنطن) وقد جاء في الخبر:

" حين يصبح الحب حب الوطن، ويُقهر شعب ويُجوع ويُعذب ويُشرد، ويظل يقاوم ويرفض المساومة، ويصر على حقه في الحياة والحرية، وحين أعطت بريطانيا فلسطين لليهود حدث خطأ في المعادلة الدولية التي أخذت مستقبل شعب يموت حباً في أرضه، وأعطيته لماضي شعوب غازية من أطراف الدنيا، لأن العطاء التابع من غير حب يظل مزعزاً تقصصه مدارك الحق، لكن جبروت الحب سيظل أقوى من أي شيء، فالشعب الذي يموت حباً من أجل الوطن سيظل صوتاً صارخاً في ضمير الإنسانية وسيظل رمزاً لما تحمله قصائد الشعراء وأهات المغترين من عميق الحب".

بهذه العبارات قدّمت السيدة ناهدة فضلي الدجاتي الشاعرة والإذاعية القديرة الدكتور سهيل بشرؤـي، أستاذ كرسى دراسات جبران خليل جبران للأدب في جامعة ميريلاند، الذي انشغل طيلة أربعين عاماً بموضوع شعراء المهجـر، للحديث عن، وتقويم، أدب حب الوطن في أعمال شعراء المهجـر في الأمسية التي استضافها مركز الحوار العربي بالعاصمة الأمريكية.

أشـار الدكتور بـشرؤـي في بداية حديثـه إلى أن موضع الوطن في الأدب العربي القديم كما نفهمـه اليوم يختلف عن فهمـنا له في السابق، لأنـ العرب الأولـ كانوا يـنتقلون من مكانـ إلى آخر دون تـملـكـهم الأرضـ. فعلى الرغمـ من حرية اـمتـلاـكـ الأرضـ آنـذاـكـ، فإنـ العـربـيـ كانـ دائمـ العـودـةـ إلىـ دـيـارـهـ، لأنـ عـلـاقـةـ الحـبـ بـالـدـيـارـ وـالـوـطـنـ هـيـ عـلـاقـةـ عـميـقةـ لـهـاـ أـصـولـ وـجـذـورـ.

وبـاطـلـالـةـ سـريـعةـ علىـ حـبـ الـوـطـنـ فـيـ الإـنـتـاجـ الـأـدـبـيـ عـنـ شـعـرـاءـ الـمـهـجـرـ أوـ أـعـضـاءـ الرـابـطـةـ الـقـلـمـيـةـ، التـيـ ضـمـتـ فـيـ صـفـوـقـهاـ جـبـرـانـ خـلـيلـ جـبـرـانـ وـرـشـيدـ أـبـوـ وـنـسـبـ عـرـبـيـةـ وـالـيـاسـ عـطـاـ اللـهـ وـآخـرـينـ بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ أـمـينـ الـرـيـحـانـيـ الـذـيـ أـتـاحـتـ لـهـ الـهـجـرـ أـنـ يـلـتـزمـ خـطـ الرـابـطـةـ أـبـيـاـ لـأـعـضـوـيـاـ، نـجـدـ أـنـ إـنـتـاجـهـ اـسـتـهـدـفـ مـخـلـفـ أـوـجـهـ الـحـيـاةـ وـالـطـبـيـعـةـ وـنـاقـشـ مـعـظـمـ مـشـكـلـاتـ الـإـسـانـ الـظـاهـرـةـ وـالـبـاطـنـةـ، الـقـرـيبـةـ وـالـبـعـدـةـ.

ولـدىـ الشـاعـرـ إـيمـانـ قـاطـعـ بـأنـ لـلـشـعـرـ وـطـنـ، وـالـوـطـنـ بـالـنـسـبـةـ لـلـشـاعـرـ بـمـنـزـلـةـ موـطـنـ قـدـمـ لـيـتـمـكـنـ مـنـ القـفـزـ إـلـىـ الـعـلـىـ، كـماـ يـشـرـحـ الدـكـتـورـ سـهـيلـ، لأنـ الشـاعـرـ الـعـظـيمـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـأـمـرـ هـوـ مـلـكـ لـلـإـسـانـيـةـ سـوـاءـ أـكـانـ أـلـيـاـ الـعـلـاءـ الـمـعـرـيـ أوـ شـكـسـبـيرـ، فـلـاـ يـمـكـنـ لـشـعـبـ مـنـ شـعـوبـ الـعـالـمـ أـنـ يـزـعـمـ مـلـكـيـتـهـ لـهـمـاـ، لأنـ أـعـمـالـ الشـاعـرـ الـعـظـيمـ تـصلـ إـلـىـ أـيـ جـمـهـورـ مـهـماـ كـاتـ ثـقـافـتـهـ أـوـ الـحـضـارـةـ التـيـ يـنـتـمـيـ إـلـيـهـاـ حتـىـ وـإـنـ لـمـ يـتـحدـثـ لـغـتـهـ أـوـ يـؤـمـنـ بـعـذـبـ الشـاعـرـ نـفـسـهـ.

والـقـاسـمـ الـجـامـعـ فـيـ حـبـ الـوـطـنـ بـيـنـ أـدـبـاءـ وـشـعـرـاءـ الـمـهـجـرـ هـوـ التـزـعـةـ الـرـوـمـاتـيـقـةـ الـوـاقـعـيـةـ فـيـ أـدـبـ هـادـفـ تـفـكـيرـاـ وـتـعـبـرـاـ لـخـلـقـ أـدـبـ حـرـ قـويـ يـعـنـيـ بـالـمـعـانـيـ وـالـأـفـكـارـ الـكـبـيرـةـ وـلـاـ يـتـقـيـدـ بـالـسـفـاسـفـ التـيـ تـكـبـلـ أـجـنـحتـهـ دونـ التـحـلـيقـ وـالـسـمـوـ، وـتـمجـيدـ الـإـنـسـانـ وـحـضـارـتـهـ. فـالـشـعـرـ الـمـهـجـرـ فـيـ مـجـمـوعـهـ، كـماـ يـشـرـحـ الدـكـتـورـ سـهـيلـ، يـعـطـيـنـاـ فـكـرـةـ عـامـةـ عـنـ إـنـتـاجـهـ الـفـنـيـ وـيـكـشـفـ عـنـ الـقـيـمـ الـأـدـبـيـةـ، وـيـبـيـنـ جـاتـبـاـ مـنـ مـحاـواـلـاتـهـ لـمـعـالـجـةـ أـدـقـ الـمـشـكـلـاتـ الـرـوـحـيـةـ وـالـنـفـسـيـةـ لـلـإـسـانـ الـعـرـبـيـ فـيـ الـعـصـرـ الـحـدـيثـ بـوـجـهـ عـامـ. وـتـلـمـسـ فـيـ إـنـتـاجـ الـمـهـجـرـيـ وـالـشـعـرـيـ وـالـنـثـرـيـ اـعـتـقادـاـ رـاسـخـاـ بـأـنـ فـنـ وـأـدـبـ الشـاعـرـ لـاـ يـخـضعـ

لأي مكان مهما بعد، سوى القدوة الخلاقة العظيمة الباعثة على الحياة والجمال، تلك القوة المستمدّة من عند الله عزّ وجلّ. وأشار الدكتور بشروني إلى قول الشاعر أبي تمام "ولولا خلل سنها الشعرا ما درى بناء العلا من أين تؤتى المكارم".

وعكست الآثار الأدبية للحركة المهاجرية إيمانها بالقيم والصفات الإنسانية الخالدة والفنية الجمالية والتقاليد التي تعطى الحياة معانٍ لها وقيمة، وتحبّداً للخيال القطري الذي لم تلوّنه المادية والمدنية الصناعية الحديثة، الذي يتصل بالأرض الطيبة والفالحين وأهل القرى من مواطنـهم وثـرى الوطن الحبيب، على عكس حضارة اليوم المادية التي تسعى إلى هدم كل أنواع الطقوس والمراسيم ذات المدلولات والمعانـي المهمـة التي تعكس ترفةـهم عن كل مبتـلـ ورخيـصـ، وسخطـهم الشـديدـ على كلـ ما تـخرـجـهـ عـقولـ السـوقـةـ لـلتـبـيلـ منـ العـقـلـ وـطـهـارـتهـ،ـ الذيـ يـجـبـ أـلـاـ تـدـنسـهـ الدـعـوـاتـ المـغـرـضـةـ التيـ تـبـئـهاـ أـبـوـاقـ الصـحـافـةـ وـالـسـيـاسـةـ لـأـنـهاـ دـعـوـاتـ مـبـتـلـةـ هـدـفـهاـ إـهـانـةـ الـفـكـرـ وـاستـبعـادـ الـعـقـلـ الإـسـتـانـيـ وـتـكـبـيلـ حـرـيـةـ التـفـكـيرـ وـالـاخـتـيـارـ،ـ علىـ حدـ تـعبـيرـ الدـكـتـورـ بـشـرـونـيـ.

ولعلّ أهمـ ماـ يـخـرـجـ بـهـ قـارـئـ شـعـرـ الـمـهـجـرـيـنـ،ـ إـدـراكـهـ الـعـيـقـ لـإـيمـانـهـ بـالـحـيـاةـ وـقـدـسـيـتـهـ وـنـبـلـهـ،ـ وـأـيـضاـ إـحـسـاـسـهـ الـمـرـهـفـ بـتـنـوـعـ تـجـارـبـهـ وـتـأـكـيدـهـ لـنـاـ أـنـاـ نـخـلـقـ مـنـ حـيـاتـنـاـ فـنـاـ جـمـيـلـاـ إـنـ كـنـاـ عـلـىـ اـسـتـعـادـ لـأـنـ نـمـنـحـهـ خـيـالـنـاـ وـقـلـوبـنـاـ بـكـلـ إـلـاـخـصـ مـنـزـهـينـ عـنـ الـأـغـرـاضـ الـدـنـيـوـيـةـ التـافـهـةـ.

وعلى الرغم من افتتاح جبران ونعيمة والريحاني بضرورة التحدث باللغة الإنجليزية لإصال فكرهم إلى الغرب، فإنـهمـ أـدـرـكـواـ فـيـ الـوقـتـ ذـاتـهـ أـنـ لـغـةـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ هـيـ الـجـامـعـةـ بـيـنـهـمـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـهـمـ كـانـواـ مـسـيـحـيـيـنـ،ـ وـخـرـجـتـ رسـالـةـ النـبـيـ لـجـبـرـانـ باختصارـ وـبـإـيمـانـ عـمـيقـ بـالـحـيـاةـ الشـامـلـةـ وـقـدـرـتـهـ عـلـىـ شـفـاءـ الـإـنـسـانـيـةـ مـنـ أـمـراضـهـ،ـ وـاعـتـقـادـ رـاسـخـ بـعـدـ وـحدـةـ الـوـجـودـ وـوـحدـةـ الـأـدـيـانـ وـمـحـيـةـ الرـحـمـنـ.

يـقـولـ الدـكـتـورـ بـشـرـونـيـ إـنـ جـبـرـانـ اـعـتـبـرـ كـلـ شـيـءـ فـيـ هـذـاـ الـوـجـودـ جـسـراـ إـلـىـ الـمحـبـةـ،ـ وـتـبـلـوـرـ رسـالـةـ جـبـرـانـ فـيـ الـإـيمـانـ وـالـأـمـلـ وـالـمحـبـةـ وـتـعـودـ مـتـائـلـةـ رـنـائـةـ فـيـقـ فـكـرـ كتابـ "الـنـبـيـ"ـ فـيـ كـفـةـ الـمـيزـانـ الـراـجـحةـ،ـ بـيـنـماـ يـقـ فـروـيدـ وـمـلـرـكـسـ وـدـارـوـيـنـ وـالـشـعـرـاءـ الـضـائـعـونـ وـالـبـيـسطـاءـ الـحـائـرـونـ وـالـمـتـمـنـونـ فـيـ الـكـفـةـ الـأـخـرىـ،ـ فـيـقـولـ فـيـ "الـنـبـيـ":ـ إـنـ شـنـتمـ أـنـ تـعـرـفـواـ رـبـكـمـ فـلـاـ تـعـنـواـ بـحـلـ الـأـغـازـ،ـ بـلـ تـأـمـكـواـ مـاـ حـوـلـكـمـ تـجـدـوهـ لـاـعـبـاـ مـعـ أـلـاـكـمـ،ـ وـارـفـعـواـ أـنـظـارـكـمـ فـيـ الـفـضـاءـ الـوـسـيـعـ تـبـصـرـوهـ يـمـشـيـ فـيـ السـحـابـ وـيـبـسـطـ ذـرـاعـيـهـ فـيـ الـبـرـقـ وـيـنـزـلـ إـلـىـ الـأـرـضـ مـعـ الـأـمـطـارـ ..ـ تـأـمـلـواـ جـيـداـ تـرـوـاـ رـبـكـمـ يـبـتـسمـ فـيـ ثـغـورـ الـأـزـهـارـ ثـمـ يـنـهـضـ وـيـحـركـ يـدـيهـ بـالـأـشـجـارـ.ـ وـيـمـتـنـ كـتـابـ "الـنـبـيـ"ـ بـأـصـدـاءـ مـيـارـكـةـ مـنـ الـكـتـابـ الـمـقـدـسـ وـالـقـرـآنـ الـكـرـيمـ.ـ وـلـمـ يـكـنـ عـرـضاـ أـنـ يـخـتـارـ جـبـرـانـ وـنـعـيـمـ الـحـدـيـثـ الشـرـيفـ الـقـائـلـ "وـالـلـهـ كـنـوزـ تـحـتـ الـعـرـشـ مـقـاتـيـحـهـ الـسـنـةـ الـشـعـرـاءـ"ـ شـعـارـاـ لـلـرـابـطـةـ الـقـلـمـيـةـ فـيـ الـمـهـجـرـ قـبـلـ نـحـوـ سـبـعينـ عـامـاـ،ـ فـقـدـ كـانـواـ مـؤـمـنـينـ بـأـنـ خـلـاصـ الـعـالـمـ وـصـلـاحـ الـمـجـتمـعـ الـعـرـبـيـ يـكـنـ فيـ اـتـحـادـ روـحـيـ يـوـحدـ الـقـلـوبـ قـبـلـ الـحـدـودـ وـقـبـلـ الـجـيـوبـ،ـ وـأـنـهـ لـاـ يـمـكـنـ لـأـحـدـ أـنـ يـحـبـ الـعـالـمـ إـنـ لـمـ تـكـنـ مـحـبـةـ وـطـنـهـ تـمـلـأـ قـلـبـهـ.ـ واـخـتـمـ الدـكـتـورـ بـشـرـونـيـ حـدـيـثـهـ قـائـلـاـ إـنـ شـعـرـاءـ الـمـهـجـرـ أـدـرـكـواـ أـنـ حـبـ الـوـطـنـ رسـالـةـ سـمـاـوـيـةـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـكـونـ حـكـراـ علىـ أـحـدـ بـعـينـهـ.ـ"